

الفصل الرابع

مسلمون في تاريخ المسيحيين المصريين

الفقيه الليث بن سعد يعزل والى مصرالذى أمر بهدم الكنائس
الليث بن سعد واحد من عظماء الفقهاء المسلمين على مر التاريخ،
قال عنه الإمام الشافعى رضى الله عنه : «الليث أفته من مالك» بل فضله
البعض على مالك، فقد أورد ابن خلكان فى وفياته عن سعيد بن أبى
أيوب قوله «لو أن مالكا والليث اجتمعا لكان مالك عند الليث أبكم ولباع
الليث مالكا فى من يزيد»^(١).

وأضاف ابن خلكان عن يحيى بن بكير أنه قال «مارأيت أفته من
الليث بن سعد، كان ثقة فى الحديث، نحوى اللسان، يحسن القرآن
والنحو، ويحفظ الأحاديث الكثيرة، حسن المذاكرة رقيق الشعر فى
المحاضرة، إلا أن أصحابه ضيعوه، لم يكتبوا عنه شيئا»^(٢).

ولد الإمام الليث فى قلقشندة (أو قرقشندة) من أعمال القليوبية
الحالية، فى العصر الأموى، حوالى عام ٩٤ للهجرة، لكنه تألق فى

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (تحقيق د. إحسان عباس) بيروت، بدون تاريخ.

ج ٤، ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) وفيات الأعيان: ج ٤ - ص ١٢٩.

العصر العباسي ، ووصل صيته لأسماع الخلفاء العباسيين فقربوه ، وطلب منه أبو جعفر المنصور أن يكون واليا له فامتنع ، فعرض عليه ولاية مصر ، فلم يقبلها ، واعتذر قائلا : «إني أضعف عن ذلك ، إني رجل من الموالي» . فقال أبو جعفر : «ما بك ضعف معي ، ولكن ضعفتك نيتك في العمل معي» .

وموقف الليث في رفض الولاية ليس غريبا ، فقد كان كثيرون من أهل العلم يرفضون العمل في الدولة حتى لا يستخدمهم الخلفاء في ظلم الناس . وكما ارتبط الليث بأبي جعفر ارتبط بهارون ، وهناك قصة طريقة تتناولها كتب التراث عن سبب العلاقة الطيبة بين الرجلين ، فقد حدث خلاف بين هارون وزوجته زبيدة فقالت له في انفعالها إنه من أهل النار ، فقال لها هارون : «أنت طالق إذا لم أكن من أهل الجنة» لكنه لم يلبث أن أفاق من غضبه ، وأحس بالندم ، وبدأ يفكر في وسيلة للخروج من هذا المأزق ، لكن السبل ضاقت به ، وعجز الفقهاء عن إيجاد مخرج له ، وفي نهاية المطاف لجأ إلى الليث فقيه مصر ، وحل الليث المشكلة ببساطة شديدة ، إذ سأله : «هل تخاف مقام الله؟» قال : «طبعاً أخاف مقام الله» . قال : «فلتقسم على ذلك» فأقسم الرشيد ، حينئذ قال له : «فهى جنتان وليست جنة واحدة ، لأنه سبحانه وتعالى يقول «ولن خاف مقام ربه جنتان» .

وكانت زبيدة تسمع الحديث من وراء ستار فصاحت فرحاً ، وحينئذ عرض عليه الرشيد أن يكون واليه على مصر لكن الفقيه الراض للمناصب

رفض الولاية، واكتفى بأن طلب من الرشيد وزوجه أن يولياه إدارة أعمالهما في مصر فوافقا، وأعطياه الكثير مكافأة له، وبعد هذه الصداقة صارت كلمة الليث لا ترد عند الرشيد.

يقول الذهبي في العبر: «كان أمراء مصر لم يقضوا أمرا من دونه، وإذا خالفه أحد في شيء، كاتب فيه الخليفة، فيعزله».

في ظل هذا جاء إلى مصر عام ١٧٠ للهجرة والجديد من قبل هارون الرشيد هو علي بن سليمان، وكان فيما يبدو رجلا متشددا وسوست له نفسه بهدم الكنائس التي بنيت بعد الإسلام، فسعى إليه المسيحيون المصريون كي يترك لهم كنائسهم فأبى، فعرضوا عليه خمسين ألف دينار فرفض، وأصر على الهدم، برغم أن الرجل كما وصفه ابن تغرى بردى كان «عادلا فيه رفق بالرعية أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، ومنع في أيامه الملاهي والخمور» إلا أن هذا كله لم يمنع عنه الليث بن سعد، فقد كتب للخليفة هارون الرشيد بعزله لأنه هدم الكنائس، ولم يرد الرشيد كلمة الليث، لأنه يعرف قدره وعلمه، وقال: «مادام الليث قد عزله فهو معزول»، وأرسل لمصر واليا آخر هو موسى بن عيسى^(١)، وما إن وصل حتى بدأ الحوار بينه وبين الليث، وقال الفقيه المستنير للوالي الجديد إنه لا بد من إعادة بناء الكنائس، وانضم إلى الليث فقيه آخر من مشاهير الفقهاء المعاصرين له يسمى ابن لهيعة، وقالا للوالي موسى بن عيسى: «هي عمارة البلاد»، واحتجا بأن الكنائس التي بمصر

(١) أبو المحاسن بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة،

لم تبين إلا فى الإسلام فى زمان الصحابة والتابعين. ووافق الوالى على ما قاله الليث وصاحبه، وأعاد بناء الكنائس. وبقي اسم الليث بن سعد على مر العصور رمزا للتسامح الدينى، وزاد من قيمته أنه فقيه مصرى مستنير.

أحمد بن طولون

أحمد بن طولون رجل تركى الأصل ولاة الخليفة المستعين حكم مصر سنة خمس وخمسين ومائتين، وكانت مصر حين جاءها ابن طولون فى أسوأ حال، فاعتنى بها، واهتم بأحوالها، وأصلح جسورها، وبنى القناطر وحفر الترغ والخلجان فانصلح حال البلاد والعباد فى عهده، وصارت مصر على يديه دولة مستقلة عن نفوذ الدولة العباسية.

تشبع أحمد بن طولون بالروح المصرية البعيدة عن التعصب، وأحب المسيحيين فأحبوه، وروى البلوى فى كتابه «سيرة أحمد بن طولون» أكثر من قصة تبين إحسان هذا الحاكم للمسيحيين وإنصافهم، ومن ذلك أنه كان كثيرا ما يتردد على دير يسمى دير القصير (بفتح القاف) وهو الدير المعروف الآن بدير المعصرة بين طرة وحلوان. وكان يخلو لنفسه متفكرا فى بعض القلالي (الصوامع المخصصة للعبادة)، وربطته علاقة صداقة مع أحد الرهبان يقال له أندونه، وكان صاحب الخراج يومئذ اسمه ابن مدبر، الذى قرر أن يجمع جزية الرؤوس من الرهبان، وكان الرهبان يتمتعون بالإعفاء من هذه الضريبة، فلما أصر ابن المدبر على جمعها شكا الرهبان لأحمد بن طولون من والى خراجه، فأمسك الرجل بورقة وكتب

فيها لابن المدير يأمره بإعفاء الرهبان من الجزية كما جرت العادة، ورفع ابن طولون ظلم عامله عن الرهبان^(١).

ومن القصص التي رواها البلوى أيضا في سيرة أحمد بن طولون قصة القائد المسلم والراهب. فقد أرسل ابن طولون أحد قاداته لأحد البلدان الريفية لحمل مال وإصلاح حال، فلما أدى الرجل مهمته جاء إليه راهب ليوقع عنده براهب آخر يختلف معه، وادعى إن الراهب الآخر وجد كنزا عظيما وفاز به وحده دون أن يعطى أحدا منه شيئا، فطمع القائد في الكنز، وأرسل من يحضر له الراهب المشكو في حقه، وحين جاءه أربهه وهدده وأخافه، فاضطر الراهب المظلوم أن يقدم للقائد خمسمائة دينار ليفتدي نفسه. وهو مبلغ عظيم بمقاييس ذلك الزمان. وإذا أردنا أن نعرف قيمته رجعتنا لابن إياس الذي يخبرنا بأن الدينار الواحد في عصر ابن طولون كان يشتري عشرة أرادب قمح، أى أن المبلغ الذى دفعة الراهب كان يساوى ثمن خمسة آلاف أرادب من القمح بسعر اليوم.

أصاب الراهب الحزن والكمد لمحنته التى مر به، ولما رأى أحد الأصدقاء المخلصين حال الراهب قال له: «لم تبكى ولنا أمير عادل منصف؟ ادخل الفسطاط واكتب قصة (شكوى) فإذا ركب أحمد بن طولون فادفعها إليه، فإنه يأمر لما يقرؤها برد مالك عليك»، لكن الراهب تردد، فهل يمكن أن ينصف ابن طولون راهبا لا يعرفه على واحد من قاداته؟ لكن الصديق ألح على الراهب حتى أقنعه بالفكرة، وأخيرا شد الرحال

(١) البلوى: سيرة أحمد بن طولون (تحقيق محمد كرد على) القاهرة، بدون تاريخ،

إلى مدينة الفسطاط. ومضى إلى باب ابن طولون ينتظر خروجه ، فرآه أحد الحجاب فسأله عن خبره فشرح له قصته . وكان الحاجب صديق القائد الذى يتظلم منه الراهب ، فقال له : بينك وبينه شىء غير هذا؟ .
قال : لا .

قال : فأنا أدفع لك الخمسمائة دينار فامض فى حفظ الله ، والرجل صديق لى ، وأنا أسترجمها منه أو أتركها له ، وأصونه عن الوقعة به .
ففرح الراهب وقال : « ما أطلب يا سيدى غير هذا » .
فأحضر الحاجب خمسمائة دينار ودفعها إليه ، فأخذها ومضى وهو لا يصدق .

كان أحمد بن طولون له عيون ترصد له كل ما يدور حوله ، ورصدت عيونها ما جرى ، فأحضر الحاجب وسأله عما جرى ، فلم يستطع الحاجب أن يكذب على سيده لأنه يعلم أنه لا يكره شيئاً من مساعديه قدر الكذب .
يقول البلوى إن ابن طولون : « أحضر القائد واعتقله ، وأنفذ الحاجب خلف الراهب إلى ضيعته حتى أحضره ، فلما حضر جمع بينه وبين القائد ، وسأله عن الحال كيف جرت ، فخبره بما كان ، فقال له أحمد بن طولون : « كان سبيلك وملك أن تدعى عليه بثلاثة آلاف دينار ، حتى آخذها لك منه ، واجعل ذلك تأديبا له ولغيره » .

ثم قال للحاجب : « والله لولا أنها مكرمة سارعت إليها ، وجميل رغبت فيه ، وقال الله عز وجل ﴿ هَلْ جَرَأُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ (١) » .

(١) سورة الرحمن الآية ٦٠ .

لعمرت بك المطبق (السجن) ولكن احذر أن تعاود مثلها، ولا تطوِّعنا خبرا ولا سرا ولا قصة تُرفع^(١).

هكذا وقف الحاكم نفسه إلى جوار حق الراهب ضد قائده ليؤكد أن المسلمين والمسيحيين في هذا البلد متساوون أمام العدالة، وليؤكد هذا النسيج المصرى المتين الذى استمر منذ دخول الإسلام حتى الآن.

الأميرة ست الملك نصيرة النصارى

ست الملك واحدة من أشهر النساء فى تاريخ مصر، وهى ابنة الخليفة العزيز بالله الفاطمى، والأخت الكبرى للحاكم بأمر الله.

ولدت ست الملك، أو ست الكل عام ٣٥٩ للهجرة بعد الفتح الفاطمى لمصر بعام واحد، وكانت أمها جارية مسيحية من المذهب الملكانى أحبها العزيز، وجعلها أم ولد، ولم تترك المرأة ديانتها، وكانت هذه السيدة صاحبة فضل على العلاقة بين العزيز بالله وبين المسيحيين، إذ عرف عهده تسامحا دينيا يجعله من العهود الذهبية للمسيحيين فى مصر، إلى حد أن البعض يرى أن المسيحيين فى عهده كانوا أكثر ثراء ونفوذًا من الأغلبية المسلمة.

كان خالا ست الملك من أبرز رجال عصرهما يرغم تمسكهما بالمسيحية، فقد كان أحدهما (أرسانيوس) بطركا للطائفة الملكانية بالإسكندرية، أما الآخر (أريسطيس) فكان بطريقا ببيت المقدس.

فى هذا الجو المفعم بالحب بين العزيز وامراته، الفياض بالتسامح، عاشت ست الملك، فكانت مسلمة بحكم ديانة أبيها، محبة للمسيحيين بحكم ديانة أمها واعتزازها بخاليها.

(١) سيرة أحمد بن طولون: ص ٢٠٧.

ويشهد المؤرخون للعزیز بتسامحه الشديد ولذلك ولى رجلا مسيحيا يسمى الوبرة وظيفه الحسبة، وكان منصور بن مقرر المسيحي هو طبيبه الخاص، ويصف المقریزی أنه حين تولى نزل من قصر العزیز بالله «وبين يديه الجنايب وبين يديه أسطال الفضة وثلاثون شمعة موكبية، وشمع معنبر، فشق الشارع نهارا إلى الكنيسة» أما عيسى بن نسطوروس فقد تسلم الوزارة وسائر الدواوين سنة أربع وثمانين وثلاثمائة وتسلم أيضا «سائر الدواوين، ونظر في جميعها، وأمر ونهى، وخاطب سائر الكتاب عن العزیز، وخاطبه سائر الأولياء وكافة الناس في مهماتهم وتوقيعاتهم^(١)».

وفي سنة ست وثلاثين وثلاثمائة احترق الأسطول فكلف العزیز عيسى بن نسطوروس بإعادة إنشاء الأسطول.

ويذكر ابن الأثير في كتابه «الكامل» «أن العزیز كان يولى في الوقت نفسه رجلا يهوديا اسمه منشا أمر الشام فاعتز بهما النصرى واليهود، وأذو المسلمين، فعمد أهل مصر وكتبوا قصة (شكوى) وجعلوها في يد صورة (تمثال) عملوها من قراطيس، فيها: «بالذى أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطوروس، وأذل المسلمين بك، إلا كشفت ظلامتى» وأقعدوا تلك الصورة (التمثال) والرقعة بيدها، فلما رآها أمر بأخذها، فإذا الصورة من قراطيس، فعلم ما أريد بذلك^(٢)».

(١) المقریزی: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا (تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد) القاهرة، ١٩٩٩، ج ٢، ص ٢٨١ - ٢٨٣.
(٢) اتعاظ الحنفا: ج ٢، ص ٢٩٧.

كانت الرقعة قاسية برغم كلماتها البسيطة، لذلك راجع العزيز ما يفعله الرجلان، وتبين أنهما استعانا بعدد كبير من النصارى واليهود، واستبعدا المسلمين، فأمر بالقبض عليهما، وراجع ثروتهما فوجد لدى عيسى بن نسطوروس وحده مئات الآلاف من الدنانير، فأخذ منه ثلاثمائة ألف دينار.

ومن الواضح أن ابن نسطوروس لم يكن فوق مستوى الشبهات، فالمؤرخ المسيحي الأنطاكي يرى أن ابن نسطوروس «رسم أيام نظره رسوما جائرة، وأحدث مكوسا زائدة على ما جرى الرسم بأخذه» بينما يقول man «وكان عيسى قاسى القلب مرابيا، خص نفسه بكل الأعمال المربحة، وزاد كثيرا من الضرائب»^(١).

برغم هذا فإن ست الملك قررت أن تتدخل لصالح عيسى بن نسطوروس، لأنها تعلم أن لكل إنسان عيوبه، وطلبت من والدها إعادته لمنصبه بعد أن يشترط عليه شروطا معينة تعالج العيوب التي وقع فيها، ولا زالت تقنع والدها بهذا حتى اقتنع، وأعاد عيسى بن نسطوروس. ولا شك أن العزيز كما وصفه المؤرخون كان يحب العفو ويستعمله، ولذا انصاع لرأى ابنته العاقلة التي لا تميز بين مسلم ومسيحي، وترى أن الوزير الكفاء يستحق التقويم بدلا من البتر.

ولم تكثف ست الملك بهذا فحين مات والدها كان أخوها الحاكم بأمر الله طفلا، وتولت هي إدارة أمور الدولة، وفي ظلها استمر عيسى

(١) نقلا عن: د. إسلام شافعى: أهل الذمة فى مصر، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٦٠.

بن نسطوروس فى منصبه ، وتركت للنصارى حرية الاحتفال بالمناسبات الدينية فيذكر المقرئى فى أحداث عام ٣٨٨ للهجرة ما يأتى :
«فى المحرم كان غطاس النصارى فضربت الخيام والمضارب والأشربة فى عدة مواضع من شاطيء النيل ، ونصبت أسرة للرئيس فهد بن إبراهيم وأوقدت له الشموع والمشاعل ، وحضر المغنون والمهلون ، وجلس مع أهله يشرب إلى أن جاء وقت الغطاس فغطس وانصرف» .
وفى نفس العام يتم الاحتفال بعيد النوروز ، وعيد الفصح ، وفى هذا العيد خلع الحاكم على فهد بن إبراهيم خلعاً حملت إلى داره ومعها بغلتان بمركبيهما وألف دينار»^(١) .

لكن هذا كله يتغير بعد ذلك حين يستقل الحاكم بالحكم ، ويصير العصر الحاكمى وبالأعلى الجميع ، فقد حرم أكل الملوخية ، والسبك الذى لا قشر له (مثل القراميط والثعابين) ومنع خروج النساء من البيوت ، ومنع زهابهن للحمامات ، ومنع صناعة الأحذية النسائية ، ومنع العمل نهارة وأمر بالعمل ليلا ، وعاقب من خرج من بيته نهارة ، وأمر بقتل الكلاب ، وأمر بمنع العنب حتى لا يصنع الناس النبيذ ، وأمر بسب أبى بكر وعمر على المنابر ، وعاقب من وجد عنده كتابا من كتب الفقه السنى .
ومافعله بالمسلمين فعل مثله بالمسيحيين واليهود . فقد أمر بهدم الكنائس ، ولبس ثياب معينة . وتعليق صلبان كبيرة الحجم فى رقابهم ، وساءت حالهم إلى حد أن عددا كبيرا منهم ترك البلاد وهرب ، أو تظاهر بالإسلام هربا من عسف الحاكم .

(١) اتعاظ الحنفا: ج ٣ ص ١٧ - ١٨ .

وفجأة يتراجع الحاكم عن هذا كله ، ويترك للمسيحيين بناء الكنائس، ويعطى لمن تظاهروا بالإسلام حق الارتداد لدينهم، ولا بد أن يسأل القارىء نفسه: ما الذى غير الحاكم كل هذا التغيير؟ ويقفز سؤال محدد إلى الأذهان: هل يمكن أن تكون ست الملك قد لعبت دورا فى هذا التغيير؟

فى نظرى أن هذا وارد، برغم أن العلاقة بين ست الملك وأخيها بلغت درجة شديدة من السوء، لأن ست الملك كانت دائما تتابع أحوال الدولة، وعند اللزوم لا تتردد فى التدخل، بل إنها حين وجدت أن الحاكم بلغ مداه، وأساء للرعية من مسلمين ومسيحيين لم تتردد فى تدبير قتله، وولت ابنه الطفل (الظاهر) بدلا منه، ومرة أخرى صارت هى صاحبة الأمر والنهى وتصريف الأمور، ويذكر المقرئى: «جمعت السيدة عامة أهل مصر وخاطبتهم بالجميل والملاطفة، ووعدتهم حسن السيرة والمعاملة، وأمرتهم بذكر حوائجهم ومصالحهم فى كل وقت، والمطالعة بحيف (ظلم) إن لحقهم من عامل أو ناظر ليفعل فى ذلك ما توجبه السياسة العادلة. وأطلقت للنساء الخروج من منازلهن والتصرف فى أمورهن^(١)».

وأعدت ست الملك للمسيحيين حق الاحتفال بأعيادهم، فنراهم فى سنة خمس عشرة وأربعمائة يحتفلون بعيد الفصح بمشاركة المسلمين احتفالا صاخبا. ولم تلبث أن توفيت هذه الأميرة فى الخامسة والخمسين من عمرها (٤١٤ للهجرة) لكن دورها كان أبرز من أن

(١) اتعاظ الحنفا: ج ٣ ص ١٢٦.

ينسأه التاريخ. وقد سجله مؤرخو الإسلام ومؤرخو الكنيسة مسجلين لجميل فعالها ودورها فى إشاعة التسامح بين أبناء الوطن الواحد.

السلطان الظاهر برقوق ومواقف لا تنسى

كان عصر الظاهر برقوق من أغرب العصور التى مرت بها مصر، فالخطر المغولى قد ظهر فى آسيا، ويزحف حثيثا نحو بلاد السلطنة المصرية الشامية التى يحكمها المماليك كما يحكمون بلاد الحجاز لكن الغريب أن الظاهر برقوق برغم ما يدور حوله كان حريصا على إقرار العدل بين رعيته مسلمين ومسيحيين، وسنرى فيما يلى بعض مواقف هذا السلطان التى حفظها لنا التاريخ، لكن قبل ذلك لنتعرف من قرب إلى هذا السلطان الذى نتحدث عنه. قال عنه ابن إياس فى بدائع الزهور:

«وهو أول ملوك الجراكسة بالديار المصرية، وهو الخامس والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية... ولى الملك فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان المعظم قدره سنة أربع وثمانين وسبعمئة... ولقبه شيخ الإسلام سراج الدين (البلقيني)، بالملك الظاهر، لأنه ولى الملك وقت الظهر، وهو مأخوذ من الظهيرة، وقد ظهر أمر سلطنته فى ذلك الوقت، فأشار بهذا اللقب له^(١)».

وكانت الفتن فى هذا العصر لا تهدأ حتى إنه تم عزل هذا السلطان عن سلطنته، لكنه لم يستسلم وعاد للسلطنة فى ربيع الأول سنة اثنتين

(١) محمد بن أحمد بن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور (تحقيق محمد مصطفى)

القاهرة، ١٩٩٨، ج ١ ق ٢ ص ٣١٨.

وتسعين وسبعمائة. وبعد عام واحد من عودته ، وفى ظل هذا الجو المضطرب ، وقعت هذه الحادثة التى رواها المؤرخ ابن الفرات .
قرر أحد الأمراء المماليك أن يستغل السلطة والنفوذ على بعض المسيحيين ، واختار قرية من قرى الجيزة هى الشوبك ليمارس تسلطه على أهلها .

اسم هذا الأمير؟
ناصر الدين بن أقبغا أص.
وظيفته؟

شاد الدواوين ، أو المسؤول عن الدواوين .
راح ابن أقبغا يبتز النصارى ، ويفرض عليهم الأموال بدون وجه حق ، ومن لا يدفع فالويل له ، ورجال الأمير جاهزون للضرب والتعذيب والاضطهاد ، ولم يحتمل نصارى الشوبك ظلم هذا الجبار العتى ، فقرروا اللجوء للسلطان برقوق ، وما إن علم برقوق بالأمر وتأكد من صدق الشاكين حتى أمر بالقبض على الأمير ابن أقبغا ، لم يجامله لأنه المسؤول عن الدواوين ، ولم يخف من ارتباك أمور الدولة بسبب القبض عليه ، بل كان حادا كالسيف .

بعد القبض على الأمير جاءوا به إلى السلطان ، ولم يتردد السلطان فى عقابه ، وأمر به فحضر كما كان يضرب الناس ، ثم أصدر قرارا أقسى على الأمير من الضرب والألم الجسدى ، فقد صدر أمواله التى جمعها من الناس دون وجه حق وانطوت صفحة ظلم النصارى فى الشوبك

وبقيت حقيقة تقول إن حكام المسلمين لم يترددوا في عقاب المسؤولين المسلمين إذا ظلموا.

ولعله من الضروري هنا أن نذكر أن الظلم لم يكن يقع على النصارى فقط، بل كان يقع مثله على إخوانهم المسلمين فمما يرويه ابن إياس فى أحداث عام ٧٩٧ للهجرة:

«وفى ربيع الأول، تزايد ظلم الوزير، وناظر الخاص، وصاروا يرمون الرمايات من البضائع على السوقة (التجار) بأعلى الأثمان، فخسروا فى ذلك نحو النصف^(١)».

وفى أحداث عام ٧٩٨ للهجرة يقول:

«كانت هذه السنة صعبة، شديدة البأس على الناس، وقع فيها الفناء والغلاء،... وكثرة هجوم المناسر (للصوص) فى الحارات، وقلة الأمن للناس^(٢)».

أى أن الظلم كان عاما، والجميع كانوا يعانون من الأحوال السيئة. وفى عصر برقوق أيضا نجد مسيحيا آخر يشكو من أحد نواب قاضى المالكية، اسمه على شمس الدين محمد بن الشهاب أحمد الدفرى، وأحضر السلطان المشكو فى حقه وهو قاض، وكان للقضاة شأن فى هذا العصر، ويكفى أن نعرف أن من بين قضاة العصر كان العلامة ابن خلدون، والمؤرخ العظيم المقرئى، لكن السلطان لا يعرف إلا أن هناك شكوى موجهة ضد الرجل، لذا أحضره، وعرض الشاكى

(١) بدائع الزهور: ج ١ ق ٣ ص ٤٧٣.

(٢) بدائع الزهور: ج ١ ق ٣ ص ٤٨٣.

المسيحي شكواه، وتبين للسلطان أن الشاكي صاحب حق، لذا قرر أن يقتص له، وأمر ببطح نائب القاضى على الأرض، وضربه، وأمر بالقبض عليه حتى يخلص المسيحي من ظلمه^(١).

هذه مواقف حاكم مسلم أمن بأن مصر بلد للمسلمين والنصارى، وأن من حق النصارى أن يتمتعوا بالعدل مثل إخوانهم المسلمين، ومن جار عليهم يجب أن يلقي جزاءه.

السلطان المؤيد يأمر بإعادة بناء كنيسة الجيزة

نحن الآن فى بداية القرن التاسع الهجرى، بالتحديد فى عام ٨١٨ للهجرة، وحاكم مصر هو السلطان المؤيد شيخ المحمودى، ولنتعرف أولاً إلى هذا السلطان، الذى كتب عنه ابن إياس فى كتابه بدائع الزهور فى وقائع الدهور يقول:

«هو الثامن والعشرون من ملوك الترك (المماليك) وأولادهم بالديار المصرية... بويع بالسلطنة بعد خلع الخليفة العباس، فى يوم الإثنين مستهل شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة... فكان أول من بايعه من العلماء جلال الدين البلقينى... ثم قدمت إليه خلعة السلطنة وهى جبة سوداء بطرز زركش وعمامة سوداء، وتلقب بالملك المؤيد^(٢)».

وكانت هذه الفترة مشحونة بالمجاعات والحروب والمحن، وفى وسط هذه الفترات يزداد التشدد، ليس ضد أبناء الديانات الأخرى فقط

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك (د. محمد مصطفى زيادة) القاهرة، ١٩٥٨،

ج ٢ ق ٣ ص ٨٣٠.

(٢) بدائع الزهور: ج ٢ ص ٤.

بل ضد أبناء الدين الواحد، حتى إن ابن إياس يذكر لنا في أحداث عام ٨١٨ للهجرة هذه الواقعة الغريبة:

«في شهر رمضان وجد إنسان سكرانا، فقبض عليه وضرب الحد، ثم طيف به القاهرة، فلما وصل الصليبية، ثارت عليه جماعة من العوام فقتلوه وأحرقوه بالنار»^(١).

إن حد الخمر في الإسلام معروف، وليس فيه قتل ولا حرق ولا تشهير في أرجاء المدن. لكن يبدو أن التشدد كان هو سيد الموقف.

في ظل هذا الجو المحتقن قام المسيحيون في الجيزة بتجديد كنيسة بالجانب الغربى من النيل، وبلغ الخبر أحد المتشددين ويدعى الشيخ سليم، فثار وجمع الجموع من المتعصبين أمثاله وذهبوا إلى الكنيسة فهدموها، ولجأ الإخوة المسيحيون للطرق الشرعية، فسعوا إلى السلطان، وشرحوا له الأمر، وبينوا له حقيقة ما حدث، وبينوا له أن الشيخ سليم هذا فعل ما فعله دون حكم قاض، ولا قرار من الحاكم المسئول، وقرر السلطان المؤيد إنصاف أبناء الوطن المسيحيين، فاستدعى الشيخ المتعصب، وعلى حد تعبير ابن حجر راوى قصتنا^(٢) فإن هذا الشيخ «أهين» في حضرة السلطان. ثم أحال السلطان الأمر للقضاء، وللأسف لم يذكر لنا ابن حجر اسم القاضى الذى نظر فى الأمر، لكننا بالرجوع للمقريزى فى كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك»

(١) بدائع الزهور: ج ٢ ص ٢٤.

(٢) ابن حجر العسقلانى: إنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت، ١٩٨٦، ج ٧

ص ١٩١ - ١٩٢.

نعرف أن القضاة الذين كانوا يشغلون منصب قاضي قضاة فى المذاهب الأربعة هم:

- قاضى قضاة الشافعية: شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن بن البلقينى.

- قاضى قضاة الحنفية: ناصر الدين محمد بن عمر بن العديم.

- قاضى قضاة المالكية: جمال الدين عبد الله بن مقداد بن إسماعيل الأقفهسى.

- قاضى قضاة الحنابلة: مجد الدين سالم بن سالم المقدسى^(١).

وفى رأى أن القاضى المرجح قيامه بهذه المهمة هو قاضى قضاة الشافعية ابن البلقينى، لأن قضاة الشافعية كانت لهم الصدارة بين بقية القضاة. المهم أن القاضى أذن للمسيحيين فى إعادة بناء ما تهدم. ويقول ابن حجر إن المسيحيين أعادوا البناء وشيدوا ما شاءوا».

هذه هى الروح المصرية المعتدلة القادرة وسط جو التشدد العام أن تعيد الحق لأصحابه، وتنصف أبناء الوطن مسلمين ومسيحيين.

الشيخ الباقورى التسامح فى صورة إنسان

ولد الشيخ الباقورى عام ١٩٠٧، أو عام ١٩٠٩، كما يروى أصدقاؤه وتلاميذه، وحين بدأ يدرك ما حوله كانت ثورة ١٩١٩ تملأ الدنيا وتشغل الناس، وكان من الطبيعى أن يتأثر الشيخ بالثورة، وبأهم مبادئها، وهو «الدين لله والوطن للجميع».

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٤ ق ١ ص ٢٩٨.

وفيهم من كتابات الشيخ الباقورى أنه عاش الوحدة الوطنية منذ طفولته فى قرية باقور، من قرى محافظة أسيوط، ويروى لنا كيف كان يسكن البيت المجاور لبيتهم فى القرية أسرة مسيحية، وكيف كان أبناء البيتين يلعبون معا ويأكلون من خبز واحد ويشربون من ماء نيل واحد، ولا ينسى أنه كانت لهم جارة مسيحية تسمى دميانة تعود أن يناديها بـ «ستى دميانة»، لأنها كانت صديقة جدته (سته)، وفى مثل عمرها، وتعامله بعطف وحب مثل جدته تماما.

ولم تقف المسألة عند حد القرية التى يسكنها، بل كانت تمتد لتشمل القرى المجاورة، وهذا يتضح مما كتبه عنه الأستاذ لمعى المطيعى، ابن قرية المطيعة المجاورة لباقور، حين يقول فى موسوعته «هذا الرجل من مصر»: «قريتى تجاور قريته بيوتا وحقولا، هما قرية واحدة فى واقع الحال وليستا قريتين. نصف ساعة على الأقدام ويكون المرء فى بيت له فيه نسب وقربة هنا وهناك.. الأسرة الواحدة بعضها من هناك وبعضها من هنا، فاتصلت الأنساب وتداخلت البيوت والحقول بالميراث، وتشابكت الأصول والفروع^(١)».

ويروى لمعى المطيعى فى حب صادق كيف استمرت هذه الصداقة، فيذكر أنه بعد أن تقدم العمر به وبصديقه أصاب صديقه الفالج، فكان يمشى مستندا على ذراع أحد الأشخاص، وحين رآه فى قاعة اللجنة المركزية سار إليه برفق حريصا على ألا يثير انفعاله نظرا لحالته الصحية

(١) لمعى المطيعى: هذا الرجل من مصر، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٧.

ووضع يده اليمنى على ذراع الشيخ برفق ودعا له بالصحة والعافية وطول العمر، وحينئذ تهللت أسارير وجه الباقورى وابتسمت شفثاه، وقال: «التحية هكذا لا تنفع» وأخلى ذراعه من كتف صاحبه الذى يستند إليه وضم لمعى المطيعى فى أخوة، أو فى أبوة صادقة. باعتبارهما بلديات وبينهما «عشرة» طويلة^(١).

ولم يكن المطيعى وحده الذى يتحدث بحب عن تسامح الشيخ وبعده عن التعصب، فهاهو القمص بولس باسيلي يروى لنا فى مقال له بعنوان «الشيخ الباقورى عملاق العلم والدين» مواقف عديدة عن تسامحه، ومن ذلك مثلا هذا الحوار بين القمص والشيخ. قال القمص للشيخ: لو قدر لك يا فضيلة الشيخ أن تولد من أب اسمه جرجس أو مرقس، وأم اسمها مريم أو حنونة، فماذا كنت ستسمى؟

وأجاب الشيخ بسرعة: كنت سأدعى بولس باسيلي.
قال القمص: ولو قدر لى أن أولد من أب اسمه حسن أو حسين أو حتى حسانين، وأم اسمها زينب أو فاطمة أو خديجة فماذا كنت سأصبح؟
أجاب الشيخ: كنت ستصبح أحمد حسن الباقورى.

قال القمص: إذن لا فضل لك فى إسلامك، ولا فضل لى فى مسيحتى
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(٢).
قال الشيخ الباقورى: صدق الله العظيم^(٣).

(١) هذا الرجل من مصر ص ١٨.

(٢) سورة هود الآية ١١٨.

(٣) القمص بولس باسيلي: الشيخ الباقورى عملاق العلم والدين (بحث ضمن كتاب: الشيخ الباقورى تاريخ وذكرى) أسيوط، بدون تاريخ، ص ٧٠ - ٨٧.

يروى القمص بولس باسيلي، والأب كريستيان راعي الكنيسة الكاثوليكية بمصر، قصة استضافة الباقوري أثناء رئاسته لجامعة الأزهر للكاردينال كوتيج رئيس أساقفة فيينا لإلقاء محاضرة في الأزهر الشريف موضوعها «التوحيد»، وكان الكاردينال يحمل على يده الروب الكهنوتي، وقبل أن يدخل القاعة استأذن الباقوري في ارتداء الروب، فقال له رحمة الله عليه: «بل تفعل يا أخى ولا ترتديه وحدك، بل اسمح لى أن أعينك على ارتدائه.

واندهش الكاردينال، وقال له: أنت متسامح كريم. فأجاب فضيلته: إننى عندما أسمح لك بلبس زيك الكهنوتى وأعينك على ذلك، فليس هذا مخالفا لما ترشدنى إليه عقيدتى، وإنما أنا أفتدى بالرسول الكريم الذى جاءه وفد من نصارى الحبشة فأكرم وفادتهم، وأنزلهم فى المسجد مكرمين، وقام على خدمتهم بنفسه، ورفض أن ينوب عنه فى ذلك إنسان آخر^(١).

تلقى الشيخ الباقوري تعليما دينيا، وتدرج من كتاب القرية إلى معهد أسيوط الدينى، الذى تخرج منه ١٩٢٨، ثم التحق بالقسم العالى وحصل على العالمية النظامية ١٩٣٢، ثم حصل على شهادة التخصص فى البلاغة والأدب سنة ١٩٣٦.

كان خلال دراسته زعيما للطلبة، وحين اختلف الملك فؤاد سنة ١٩٣٥ مع الشيخ المراغى شيخ الأزهر وقف مع الشيخ، وقاد ثورة الطلاب

(١) البحث السابق، وبحث الأب كريستيان ظان نيسان: التوحيد والإخاء (ضمن الكتاب السابق) ص ١٢١ - ١٢٧.

ضد الملك، وعقابا له ولكل مؤيدى الشيخ تم فصلهم جميعا، لكنه لم يلب، واستمر فى قيادة الثورة حتى تراجع الملك، وأعاد الشيخ لموقعه، مستجيبا لما نادى به من مطالب لم يكن الملك راضيا عنها، وأعاد الشيخ المراغى رحمه الله كل من فصلوا لأنهم أيدوه.

هذا هو الباقورى الثائر، وفى رحلة بحثه عن الإصلاح انضم للإخوان المسلمين باعتبارها حركة إصلاحية، ثم انضم لثورة يوليو أيضا باعتبارها محاولة للإصلاح، واختاره جمال عبد الناصر وزيرا، لكنه لم يكن من طبعه السكوت على الخطأ، وانتقد برغم وجوده فى السلطة، وانتهى به الأمر مطرودا من منصبه مغضوبا عليه، ولم يعد للحياة العامة إلا بعد حين، حيث تم تعيينه رئيسا لجامعة الأزهر.

ويهمنا هنا موقفان للشيخ الباقورى حين كان وزيرا للأوقاف..

بلغ الشيخ الباقورى أن كفر الشيخ ليس بها كنائس يتعبد فيها الإخوة المسيحيون، ولما كان فى كفر الشيخ أراض كثيرة للأوقاف فقد قرر الشيخ أن يقوم بواجبه تجاه إخوانه فى الوطن، وخصص أرضا من أرض الأوقاف لكى يقيم المسيحيون عليها كنيسة لهم يذكرون فيها اسم الله.

الموقف الثانى أذكره بكلمات الشيخ نفسه:

«كنت قد عرفت أن فى المطرية شجرة، وأن هذه الشجرة مقدسة لأمر واحد هو أن السيدة العذراء عليها سلام الله، حين أسعدت هذا البلد بوليدها المبارك العظيم جلست فى ظل هذه الشجرة، فأقامت مساكن شعبية بالمطرية، وأمرت بصفتى وزيرا للأوقاف أن تقام استراحة لمن

عساهم يجيئون من الغرب المسيحي الأمريكي أو الأوروبي ليزوروا هذه الشجرة تبركا بالسيد المسيح^(١).

هذا هو الشيخ الباقوري، امتداد السلف الصالح من الفقهاء المسلمين العظماء الذين آمنوا بأن الدين لله والوطن للجميع، وسعوا لتوطيد العلاقات بين أبناء الشعب الواحد من المسلمين والأقباط.



(١) الشيخ الباقوري تاريخ وذكرى: ص ٨١ - ٨٢.